إشكالية المنهج
في الدراسات الأدبية المقارنة

سليم حيولة
جامعة الدكتور يحي فارس ـالمديةـ

يعتبر الأدب المقارن أحد الميادين الدراسية الجديدة نسبيا قياسا بغيره من العلوم الإنسانية، والملاحظ أنه لا يقف على أرض ثابتة باعتباره عرضة للأزمات والتغيرات باستمرار، حيث لم يتحقق له إلى الآن ما ينشده من الاستقلال المنهجي، لكل هذا دأب في محاولة تحديد مجالاته وتقنين مفاهيمه وتطوير أدواته واستكمال مناهجه وتأصيلها من خلال جهود عدد كبير من المشتغلين في الميدان والذين يسعون كذلك إلى تحقيق أهدافه لكي يثبت شرعيته ويؤكد استقلاليته المنهجية المرجوة باعتباره علما توفرت له رؤية أو فلسفة وكذلك مادة* وهذه المسائل المطروحة "تفرض على الدارسين والمهتمين به أن يكونوا على صلة دائمة بالمتغيرات الجارية التي تقع له وعلى وعي بمعطياته العلمية والمعرفية الجديدة واطلاع مستمر لكافة توجهاته وحركته البدائية في العالم كله ومتابعة دائمة لتطوراته شبه اليومية التي لا تنتهي في عصر أقل ما يمكن أن يقال عنه : إنه عصر الانقلاب المعرفي المدجج بنظم المعلومات."[1]

غير أن هذا الانقلاب المعرفي لم يكن السبب الوحيد الذي كان وراء الأزمة بل إن الأزمة قديمة تعود لما يزيد عن نصف قرن و لم يزدها الانفجار المعرفي والمعلوماتي إلا استفحالا.

وكان من شأن كل ما ذكرت أن سرعت عملية النقد الذاتي ضمن المتغيرات العصرية وأصبح معها "الحديث عن المناهج المستخدمة في حقل المقارنات الأدبية أقرب ما يكون إلى الجعجعة بلا طحن وأصبحت الحاجة إلى منهجية واضحة وملزِمة تؤسس بنية هذا الحقل المعرفي حاجة ماسة وضرورية."[2]

وأبرز ما يمكن الاستشهاد به في هذا الباب هو تلك المناقشات التي جرت بين ممثلي مدارس الأدب المقارن في العالم، فالمقارنون الأمريكيون الذين رفضوا حصر الأدب المقارن في مفهومه الضيق الذي حصرته فيه المدرسة الفرنسية والذي كان يعني عندها العلاقات القائمة بين أدب قومي وأدب أو آداب أخرى، بل عملوا على توسيع مفهوم الأدب المقارن ليشمل المقارنات بين الآداب المختلفة رغم عدم ثبوت قيام علاقات تأثير وتأثر بينها كما وسعوا أفق المقارنة لتشمل كذلك دراسة العلاقات بين الآداب ومجالات أخرى من المعرفة والمعتقدات مثل الفنون الرسم والتاريخ والعلوم الاجتماعية والسياسة والاقتصاد والاجتماع والعلوم والدين... وهكذا قاموا بدراسات مثل علاقة الشعر بالفنون التشكيلية لاسيما الرسم، وعلاقة الأدب بالموسيقى.* وكل هذا الانفتاح فُرض على الأدب المقارن كضرورة منهجية من أجل الخروج من أزماته المتلاحقة وليس غريبا أن "صرنا نجد في دوريات الأدب المقارن الأمريكية المتخصصة والمتسيدة عالميا دراسات نظرية وتطبيقية تطرح موضوعات شديدة الحداثة على الأدب المقارن مثل

تأثير تيارات الفكر الأوروبي-أو الأمريكي على التأليف الموسيقي أو ظاهرة الجنون في الفنون المختلفة كالأدب والموسيقى والسينما أو علاقة لوحة تشكيلية أو سيمفونيية ما بديوان شعري أو العكس أو رصد وتحليل مقارن لاستخدامات اللون ودلالاته في لوحة تشكيلية وديوان شعري أو رواية شرط أن تشترك هذه الفنون جميعا في معالجتها لموضوع محدد أو دراسة تعقد مقارنة بين الطرز المعمارية وانعكاسها على تطور بناء الرواية في بيئة وعصر ما فضلا عن الدراسات العديدة التي تقوم حول صناعة فن السينما المعاصرة وطبيعة الموضوعات التي تعالجها وتأثيرها على الحياة الفكرية والاجتماعية أو أثرها على النتاج الأدبي ومخيلة الأدباء وسيكولوجياتهم في لحظات الإبداع[3].

ويستحسن في هذا المجال الحديث عن أثر لوحة الفنان الفرنسي "جان راواكس" المعنونة بـــ"بغماليون وغالاتيا" الموجودة بمتحف اللوفر بفرنسا في مسرحية الكاتب المصري توفيق الحكيم "بغماليون" فقد ثبت انه شاهدها أثناء تجواله بالمتحف، وإن كان يجمع بينهما الأسطورة اليونانية القديمة. غير أن هذه القضية لم يستسغها البعض من الدارسين العرب ورأوا فيها تطرفا ثانيا جوبه به تطرف المدرسة الفرنسية "في حين انطلق الأمريكيون من خطإ مشابه وهو المقارنة بين الآداب وبين غيرها من الفنون والعلوم" [4].

وقبل الحديث عن المنهج المقترح في الدراسة المقارنة وهو الهدف من هذا البحث لا بأس بالحديث عن أمر لا يقل أهمية وهو الشروط الواجب توفرها في الباحث المقارن والتي تقوم على توفر الطالب مهما كانت طبيعته على أكبر كفاءة أدبية ولغوية فلا يمكن ممارسة الأدب المقارن انطلاقا من نصوص فرنسية أو إسبانية أو إنكليزية أو مترجمة

إلى هذه اللغات فحسب، كما أنه لا يمكن تصور دراسة النصوص القديمة الإغريقية واللاتينية أو الحديثة في ميدان الأدب انطلاقا من الترجمات فحسب، فمعرفة اللغة الأصل والاعتماد عليها أثناء المقارنة أمر ضروري لكل عملية، بالإضافة إلى ضرورة معرفته للأعمال الأدبية المرجعية والتي قد يبدو له مبدئيا عدم أهميتها. كما يجب عليه أن يكون واعيا بأنه سيجد في كل نص عناصر عديدة متداخلة بعضها لا ينتمي إلى أدبه القومي الذي ألف فيه، لكنها متمايزة فالأمر يتعلق بحوار بين النص ولغته بين المؤلف وثقافته والثقافة الأجنبية التي تأثر بها. والفهرس البيبليوغرافي هو أول ما ينبغي على الباحث المقارن الحصول عليه لأنه يساعده على الوقوف على كل ما كتب في الموضوع ولا مندوحة للدارس من أن يكون ملما بكل ذلك بل أن يكون له فهرس يحدد وجهة أعماله.

كما يجب على المقارن أن يضع نصب عينيه أن المقارنة طريقة في النظر إلى النصوص ووضع لفرضيات ومساءلة النصوص بطرح هذا سؤال أساسي يميز دون شك الأدب المقارن عن الاختصاصات الأخرى وهو : ما الذي يحصل عند ما يلتقي وعي بشري مدمج في ثقافة، في ثقافته، بعمل هو تعبير عن ثقافة أخرى وجزء لا يتجزأ منها ؟

ويمكن منذ هذه اللحظة أن نتبين الهدف الأساس من المقارنة والسياج الذي يفرض علينا أثناء تأدية هذه العملية بحصرنا في مجال معين يقودنا إلى هدف واضح في النهاية يسمح لنا بالابتعاد عن ممارسة المقارنة من أجل المقارنة. وبهذا فإن "ممارسة المقارنة تستتبع في مثل هذه الظروف موقفا استكشافيا فهي تقود إلى قراءة نقدية ذكية وسرعان ما تتجاوز هذه القراءة حدود النص في جانبه الفيلولوجي لترتكز على بعده

المتعدد الثقافات"[5]. بل إنه موقف استكشافي والمتعة الأساس والهدف الأسمى في مثل هذه الأمور يبقى هو هذا الاستكشاف متعدد الأبعاد، ويسمح لنا من إدراك الفكرة التي حذر منها كل أساتذة الأدب المقارن من أن الأدب المقارن ليس هو المقارنة الأدبية. ولكل هذا فإنه "لا نستطيع بناء أي شيء ولا مقارنة أي شيء إذا كنا نجهل القواعد والقوانين الخاصة بكل ثقافة وطنية؛ يجب إذن أن يكون الواحد منا مختصا في الدراسات الإسبانية ومختصا في الدراسات الفرنسية ليستطيع مقابلة تيرسو وموليير مقابلة جيدة".[6]

الرؤية العامة في الدراسة المقارنة

يمكن للمقارن أن يمارس المقارنة بين نصين بعد أن يرى إمكانية تأثر السابق منهما باللاحق من خلال اكتشاف عناصر متشابهة أو مختلفة تدل على التأثير والتأثر وهذا ما يسمى بالمقارنة الثنائية، مثال ذلك المقارنة التي جرت بين شعراء الموشحات والأزجال الأندلسية وشعر التروبادور الأوروبي، حيث تقود المقارنة الدارس إلى اكتشاف عناصر داخلية ذات صلة، ولا يمكن تفسيرها سوى بتأثر التروبادور بالشعر الأندلسي في الشكل والمحتوى ولكن هذا التشابه ما كان لنا الإشارة إليه وإقامة الدراسات حوله لولا ثبوت اتصال تاريخي بينهما وهذا ما يسمى بالمقارنة الثنائية ويمكن قول الأمر ذاته في أثر ألف ليلة وليلة على قصة زديك لفولتير أو المسرح الفرنسي في القرن الثامن عشر وكذلك أثر مجنون ليلى في الأدب الفارسي، أو القصة الفلسفية "حي بن يقظان" التي كتبها الفيلسوف الأندلسي ابن طفيل على قصة "روبنسون كروزوي" للكاتب الإنكليزي دانييل ديفوي كل هذه المقارنات نسميها ثنائية، غير انه في كثير من الأحيان نجد تشابهات كثيرة بين نصين

وذلك لأن علاقات التناص لا تنشأ بين أعمال أدبية تنتمي إلى أدب قومي واحد بل تتخطى ذلك إلى آداب وثقافات متعددة "ولذا من الممكن إجراء دراسات مقارنة انطلاقا من نظرية التناص حول ظواهر التناص التي تنتمي إلى آداب مختلفة ... والشيء نفسه يمكن أن يقال عن علاقة الأدب المقارن بالسيميائية، إذ ليس هناك من الناحية النظرية ما يمنع من القيام بدراسات أدبية مقارنة انطلاقا من هذا المنهج وهذا ينطبق أيضا على الاتجاهات والمناهج النقدية المعاصرة الأخرى"[7]. فهذان مجالان نظريان خصبان، ويمكن أن تتبع هذه الإفادة تطبيقا على النصوص وفي التطبيق تكون هذه النظريات والمجالات على محك حقيقي يحدد أهليتها فيما يمكن أن يقام من بحوث. وهذا ما يجعل الأدب المقارن مطالبا باستيعاب المناهج والاتجاهات النقدية الجديدة ومعرفة تبعاتها وانعكاساتها على حقله المعرفي وما إذا كان باستطاعته أن يستفيد منها نظريا وتطبيقا.

وأبرز المجالات التي طالت الإشارة إليها أثناء الحديث عن الأدب المقارن هو النقد الأدبي بحكم وثاقة العلاقة بينهما بل إن البعض يعتبر الأول تابعا للثاني وجزءا منه غير أن النتائج التي يتوصل إليها الأدب المقارن يمكن لها أن تغني النقد الأدبي ومن ثم يوجد من يعتبره رافدا مهما من روافد النقد الأدبي ولازمة لابد منها " فالنقد الأدبي ذاته دراسة غايتها الكشف عن القيم الفنية الكامنة في الأعمال الأدبية وتفسيرها، وهذه الغاية لا يتم تحقيقها إلا إذا استطاع الناقد أن يحل رموز هذا العمل بالكشف عن المنابع والمؤثرات التي انتقلت إلى الكاتب أو الشاعر من الآداب الأخرى"[8]

كل هذه الجهود المتضافرة والأعمال الرائدة بينت بما لا يدع مجالا للشك أن الأدب المقارن ينهل من علوم ومعارف ومجالات متعددة

قد يبدوان شديدي التقارب أو التباعد ولا يمكننا تفسير التشابه بينهما عن طريق التأثير والتأثر على أساس انه لم يحصل اتصال بينهما وهنا يمكن الحديث عن نص ثالث يستقطبهما وهو ما يمكن تسميته بالقاسم المشترك وفي هذه الحالة تسمى المقارنة المثلثة مثال ذلك التشابه بين الكوميديا الإلهية للكاتب الإيطالي دانتي أليجيري ورسالة الغفران الذي لا نستطيع تفسير عملية التشابه بينهما إلا بالقول إن هناك نصا ثالثا مارس تأثيرا عليهما وهو قصة المعراج المحمدي وهو نص شعبي أندلسي، فبعض المقابلات بين أعمال شديدة الاختلاف ستكون مستعصية على الفهم دون معرفة جيدة لتاريخ الأدب، ونخلص من كل هذا إلى أن انتقال مادة أدبية من أدب إلى أدب قومي آخر ليس مسألة عشوائية، بل هو علاقة تاريخية قائمة على السببية، وهذا ما على الأدب المقارن أن يبرهن عليه بصورة لا تقبل الجدال، أي أن يبين مصدر التأثر وواسطته ونتائجه.

منهج الدراسة المقارنة :

إن مسألة المنهج المتبع في الدراسة المقارنية بين النصوص يعتبر اليوم من المسائل المهمة في مختلف الدوائر الأكاديمية المختصة أولا لأهمية المنهج وثانيا لأن النتائج المتوصل إليها سوف لن تكون حاسمة إذا لم ترافقها صرامة منهجية تحدد المسار والنتائج، والأدب المقارن باعتبارها علما حديثا كما سبق الإشارة إليه يتخذ لنفسه منهجا من خلال الإفادة من العلوم والمعارف الأخرى، فالفتوحات المعرفية المعاصرة في المجالات المتعددة يمكن أن تمثل مصدرا هاما تمده بالرؤية وبالآليات في الوقت نفسه .ومن المجالات التي يمكن الإشارة إليها في هذا الباب هي نظرية التناص كما عرفت عند جوليا كريستيفا وجيرار جينيت

بما يتطابق مع أفقه كعلم طموح له هدف أبعد ما يكون عن الانعزالية وضيق الأفق، وهذا ما جعله يكون لنفسه مسارا محددا وطريقة خاصة والأهم بالنسبة لميدان الأدب أن تلك التطورات نجحت" في ربط الأدب المقارن في كثير من توجهاته المعاصرة ووظائفه الحيوية بحركة النقد الأدبي ونظرياته الهادرة ومناهجه المتطورة وانتشلته من الانحصار في وهاد البحث في التاريخ الأدبي فقط"[9]

ويمكن لنا أن نخلص إلى أن الأدب المقارن يحتذي كامل العلوم الإنسانية في توجهاتها المعاصرة وانفتاحها على الإمكانات المتطورة المتاحة في البحث العلمي، وقد انتبه رواده الأوائل إلى هذا الأمر ومن هنا تكمن أهمية هذا المجال المعرفي وخطورته .

نحو منظور عربي في الدراسة المقارنة

لا بد من الإشارة في البداية إلى أن هناك غيابا للمنهج كمقاربة في الأدب المقارن لدى الغرب نفسه بل إن المنهج المستخدم في المقارنات وطبيعته وأدواته لم تحظ بالاتفاق المطلوب بين الرواد الأوائل سواء في المدرسة الفرنسية أم الأمريكية أم السلافية بل إن جهودهم كانت متضاربة ومتناقضة في الرؤية والمنهج .

وقد بدأت بوادر الأزمة تظهر منذ أشار رونيه ويليك إلى أزمة الأدب المقارن في سنة 1950 ودعا إلى التركيز على أدبية النص المقارن لا على تفاصيل التشابه بين نصين في الصور والحبكة وأسلوب الحديث والتعابير وهو نقد قدمه نتيجة هيمنة الدراسات المقارنة بمنظور المدرسة التاريخية الفرنسية التي اهتمت بإثبات حدوث التأثير والتأثر واستنفاد الجهد في تتبع هذا الحدوث وتم بموجب هذا إهمال جمالية النصوص التي هي غاية الدراسات الأدبية .وبهذا المنظور فالنص يتشكل من أفكار جمالية

وإيديولوجية وبلاغية وأسلوبية ويتشكل من صور قد تكون مادية أو ذهنية ويتشكل النص من عواطف ومشاعر ومواقف معلنة أو خفية، ويتشكل النص من أزمنة ماضية وحاضرة ومستقبلة أو من أزمنة مختلطة مرغوبة ويتشكل النص من إيقاعات متعددة متنوعة قد تكون منتظمة أو غير منتظمة ويتشكل من أمكنة وشخوص وتحولات.

الفرنسيون يبتعدون عن النص الأدبي باتجاه غاية التاريخ والفلكلور وكل ما هو خارج النص الأدبي وكذلك دخلوا في مسألة التوثيق وأصبح التوثيق يطغى على النص الأدبي بحيث أهملت قيمته الجمالية وتم التركيز على ماهو خارجه من مادة خام"[10]، غير أن أصحاب النظرة الثانية يرون أن قيمة الدراسات الأدبية المقارنة تاريخية بمعنى أنها منهج نقدي لبناء تاريخ أدبي متكامل تعلل فيه الظواهر الأدبية وترد إلى أصولها التي انتقلت منها.

وفي هذا المجال وتبعا لاقتراحات أحد الباحثين في ميدان الأدب المقارن والمثاقفة ودراسات الآخر* وفيما يلي ملخص هذا المنهج :

إذا كان الأدب المقارن جزءا من النقد وسبيلا مهما لإغنائه فإن الهدف الرئيسي من الدراسة الأدبية يبقى هو مواجهة التجربة الإبداعية للكاتب واستيعابها على نحو شامل ومتعمق معاً، وهذا لا يتأتى إلا من خلال أخذ الصلة الخارجية لهذه التجربة بعين الحسبان دون أن يعني ذلك انشغالاً مستغرقاً بها يحول بين المرء ومقاربته للتجربة الأدبية بوصفها كلاً متكاملاً أنتجه كائن بشري إن دراسة النص الأدبي دراسة تمليها طبيعته ومكوناته وحدوده وصلاته ووظيفته تعني دراسة صلاته الخارجية ضمن سياق هذا الكل الذي يمنحه هويته ودوره في المجتمع الإنساني.

ويقوم هذا المنهج حسب صاحبه على خمس قواعد :

أولا: إقامة الدليل الداخلي Internal Evidence

أولا تجب الإشارة إلى أن الوصول في الدراسة المقارنة إلى مجرد تقرير التشابهات والاختلافات بين كتابين أو موضوعين ليس هو غاية الدراسة وإنما هو نقطة البدء الضرورية.

والدليل الداخلي أو ما يمكن أن يسمى بالدليل النصي Textual Evidence على صلة النص المدروس بنصوص أخرى تنتمي لثقافات مختلفة، أو تحديد نقطة التماس مع الآخر في النص نفسه. ذلك أن هذه الصلة الخارجية مع الآخر، هي مسوغ الدراسة المقارنة وهي المنطلق في إقامة المقارنة.ففي موضوع أثر الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية للكاتب الإيطالي دانتي أليجيري يمكن للباحث المقارن أن يثبت دليلا داخليا على هذا التماس والمتمثل مبدئيا في التيمة الثابتة بينها وهي الرحلة إلى العالم الآخر وكذلك الحوار الذي يجري بين شخصيات عديدة بالإضافة للمرافق حيث نعلم أن النبي في معراجه إلى السماء كان يقوده الملك جبريل عليه السلام والمعري في رسالة الغفران يقوده الشيخ وبالطريقة نفسها يقود فرجيل دانتي في رحلته، وفي أثر شعر الموشحات والأزجال الأندلسية في شعر التروبادور يمكن ان نرى التشابه الداخلي في الموضوع الذي هو الحب وكذلك في الشكل حيث تتشكل الموشحة من مطلع وغصن وقفل ما يسميه التروبادور بـــ Mudanza و ostrebello وvuelta وكذلك في المضمون حيث يستعمل كل من شعراء الموشحات والتروبادور الكنية في مخاطبة المحبوب ونجد الإشارة لشخصية الرقيب gardador والرسول anel والواشي مع العلم أن الموشحات ظهرت في القرن الـــ 9 الميلادي وأعقبها ظهور التروبادور في القرن الـــ10 وأكتفي بهذه الأمثلة.

فالمقارن يكتشف التنوع الهائل لأشكال هذه الصلة في النص، لأنها يمكن أن تكون في لغته أوفي صوره، كما في بنيته الكبرى أو في بناه الصغرى المكوّنة لها، في بنيته السطحية أو في بنيته العميقة في موضوعه أو في مضمونه، في شخصياته أو في جوّه العام، أو في أي جانب من جوانبه أووجوهه أو مكوناته أو عناصره...؛ لا يهم شكلها بمقدار ما يهم وجودها ودورها ووظيفتها في الكلّ الذي يشكله العمل الأدبي، كما يمكن للاختلافات بينهما أن تكون دليلا على التأثر لأن اللحق قد لا تروق له فكرة فينسج فكرته على خلافها .ويرى صاحب المنهج أن المسألة ليست مسألة سعي حثيث لاصطياد هذه الصلة في النص بأي ثمن، حتى ولو كان لِيَّ عنق النص وتحميله مالا يحتمل من الدلالات بمقدار ما هي الاستجابة لطبيعة هذا النص ومقاربته على النحو الذي يكفل وضع اليد الأكثر شمولاً واستيعاباً على مستوياته المختلفة، أو تغطيته على نحو تام كما يرى رولان بارت.

ثانيا : إقامة الدليل الخارجي External Evidence

لا يكتفي الدارس المقارن ـكما يرىـ بالدليل الداخلي أو النصي أو بنقطة التماس مع الآخر في النص المدروس، بل يعززه بالدليل الخارجي أو الدليل فوق النصي Extra- textual على صلة منتجه مع الآخر أو تماسه معه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، يلتمسه من الوثائق والوقائع والسجلات المتصلة بالتاريخ الثقافي الخاص بالأدب القومي، أو بالأدب الوسيط، أو بأدب الآخر، ومثال ذلك تأثر الكاتب الفرنسي فولتير بألف ليلة وليلة في قصته الفلسفة الرمزية "زديج" حيث يتسنى للمنقب في إثبات الصلة ان يجد فولتير يصرح انه قرأ الليالي أكثر من أربعة عشر مرة خصوصا بعد أن يعلم أن المستشرق الفرنسي

أنطوان غالان قام بين 1704 و1717 بترجمة ألف ليلة إلى اللغة الفرنسية كما يمكن للباحث أن يتتبع ترجمة الأندلسي أبراهام الحكيم لنص "المعراج المحمدي" وهو نص شعبي يصف رحلة الإسراء والمعراج إلى اللغة القشتالية ليقوم موثق إيطالي بترجمتها إلى اللغة الإيطالية سنة 1263 أي قبل سنتين من ميلاد الكاتب دانتي أليكيري وهو دليل كاف على إثبات الدليل الخارجي على الصلة بينهما، ويمكن قول الأمر ذاته في قراءة الكاتب الإنكليزي دانييل ديفوي صاحب أول قصة في الأدب الإنكليزي " روبنسون كروزوي" حيث يرى المستشرق الفرنسي ليون غوتييه في مقدمة ترجمته للقصة الفلسفية العربية " حي بن يقظان " التي كتبها الفيلسوف الأندلسي " ابن طفيل " والتي أنجزها غوتييه سنة 1935 ويرى أن هذه الأخيرة كانت معروفة في الأدب الإنكليزي قبل أن يكتب ديفوي قصته .

ولكن، لا يجب التمادي في إقامة الدليل الخارجي على هذه الصلة لأن ذلك من شأنه إضاعة الجهد في تلك المتابعة يصبح الباحث معها محققا وموثقا ويبتعد عن الهدف الأسمى من الدراسة الأدبية وقد أعيب على المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن اهتمامها بهذا الأمر وترك ما يبدو مفيدا أكثر.

***ثالثا:* وضع الدليلين (الداخلي والخارجي) في السياق الدال :**

يجب على المقارن الذي أثبت الدليلين الداخلي والخارجي أن يضعهما في الإطار الذي يكشف عن أهمية هذه الصلة. فالسياق Context الذي تم فيه تماس النص الأدبي المدروس مع العنصر الأجنبي هو الذي يحدد في النهاية دلالة هذا التماس وأهميته وحوافزه ودوره ووظيفته في هذا النص، لأنه لا يمكن فهم دلالة أي عمل إلا بوضعه في السياق العام

الذي تمت فيه عملية التأثير والتأثر بالإضافة إلى من هو موجه إليه العمل وهو يكمن دين النظريات الاتصالية المعاصرة التي ما فتئنا نؤكد منذ البداية على انفتاح الأدب المقارن عليها.

ويمكن ضرب عدد من الأمثلة على هذه النقطة كما فعلنا مع النقاط السابقة، فلا يمكن فهم عملية التأثير والتأثر التي جرت بين ابن طفيل ودانييل ديفوي دون أن نضعها في سياقها حيث نعلم أن ابن طفيل أعاد كتابة "حي" التي كتبها ابن سينا قبله في سياق تقهقر اجتماعي وأخلاقي واسع مس المجتمع الأندلسي في تلك الفترة أي القرن..... فعبرت القصة عن نزعة الهروب من الواقع المؤلم والمشوه حيث جعل بطل قصته يعيش في جزيرة مهجورة سرعان ما يلتحق به أخد الشيوخ وهو إيسال الفار من المجتمع هو كذلك فهذا الإسقاط يعبر عن تلك النزعة ، وبالطريقة نفسها جعل ديفو بطله كروزوي يعيش في جزيرة مهجورة سنين طويلة مسقطا ذاته على شخصية كروزوي لنزعة الانعزال عن العالم بعد أن بدأ الإنسان الأوروبي يشعر بالاغتراب بعد الفتوحات العلمية التي قزمت دور الإنسان في مجتمعه، وقد ظهرت القصة على لسان الحيوان* لدى الهنود وقد قام الحكيم بيدبا بوضع كتاب "القصص الخمس" أثناء حكم الطاغية دبشليم الذي خلف الملك الذي عينه الإسكندر كما نقل الأديب العربي عبد الله بن المقفع هذا التراث من اللغة الفهلوية إلى العربية في سياق مشابه هو رؤيته للحكام المحليين في البصرة آنذاك باعتبارهم كانوا متسلطين حتى أن حادثة قتله متورط فيها حاكم البصرة كما تذهب إلى ذلك عدد من الروايات وقد تأثر الكاتب الفرنسي جان دي لافونتين بقصص الحكيم بيدبا التي نقلها ابن المقفع في فترة حكم الملك لويس الرابع عشر الذي امتاز هو أيضا بالتسلط

والعنجهية .كما يمكن تحت الأساس نفسه فهم نبرة النقمة والقنوط في شعر الإنكليزي ت. س. إليوت المتبرمة من الحياة الغربية المعاصرة والأزمة الحضارية والاجتماعية التي ألمت به في بداية القرن السابق، حيث تشابهت تجربة الشاعر العراقي بدر شاكر السياب مع تجربة إليوت من حيث إنه فقد الثقة في حياة بلاده من جراء المآسي الكثيرة التي عاناها المجتمع العراقي في الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي، كما يمكن أن أقول الأمر نفسه فيما يخص السياق الذي تم فيه التأثر بشعر الموشحات من قبل شعراء التروبادور فموضوعه هو الحب وقد كان الرجل العربي ينظر للمرأة نظرة احترام وتبجيل من خلال المفردات التي كان يستعملها في وصفها ومخاطبتها بينما كانت النساء في الأقاليم الفرنسية والإسبانية ذات سمعة سيئة وعلى الخصوص المتزوجات منهن، وهكذا يمكن الحديث عن باقي ظواهر التأثير والتأثر بين الآداب العالمية.

وترجع أهمية هذا الأساس في كونه أفضل سبيل لتوضيح وثاقة صلة هذا التماس بالتطورات الداخلية التي خضع لها التقليد الأدبي الذي ينتمي إليه النص المدروس، وبغيرها من التطورات الثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية وما إلى ذلك من متغيرات في المجتمع الذي أنتج فيه هذا النص، لأن هذا السياق الذي أنتج فيه النص والسياق الذي تمت فيه عملية التأثير والتأثر كفيل وحده بالكشف عن معناها ودلالاتها كما سبق وأن ذكرت.

رابعا: **النظام النقدي والإحساس بالقيمة :**

قيام كل ما تقدم على قاعدة من الإحساس بالقيمة. فمادام البحث المقارن يتم في ميدان الأدب. وهو فن جميل، فمعنى هذا أن الحديث عن أية صلة بين عمل أدبي قومي ومؤثر أجنبي ينبغي ألا يجري بمعزل عن نظام نقدي ما يحكم نظرتنا وتقديرنا وتقويمنا للعمل الأدبي المدروس. ومع أن للكشف عن مصادر العمل الأدبي، وتقصّي سبلها إلى منتجه، أهمية لا يمكن أن يرقى إليها الشك، فإن من الضرورة بمكان التنبه إلى أن ذلك ينبغي أن يوظف في سبيل فهم أعمق، وتقدير أكثر موضوعية، وتفسير أكثر مصداقية، للعمل الأدبي موضع الدراسة، الخلاصة التي على الباحث المقارن أن يصل إليها في الأخير لا يجب أن ترى المتأثر باعتباره سلبيا بل إنه قام بعمل مهم من حيث إنه اكتسب تجربة الآخر واستطاع أن يضمنها في نصه بارعا في عملية النقل والإبداع في الآن نفسه ومثال ذاك ما قام به الفرنسي فولتير حين تأثر بعوالم ألف ليلة وليلة في قصته زديج حيث استطاع أن يقترب كثيرا منها في تصويره لبطل قصته زديج الذي أسبغ عليه صفات أبطال الليالي ولكنه لم يجعله مستسلما للقدر مثلهم بل جعله يكافح من اجل مجابهة القدر والتخلص من ربقته عكس أبطال ألف ليلة الذي كانوا مستسلمين لمصائرهم ن وبالنسبة لدانتي لا مندوحة من أن نعلم بأنه استطاع أن يحقق مكانته الرفيعة من خلال وعيه الدقيق بأسرار اللغة الفلورنسية (التي كانت مجرد لهجة قبل كتابته الكوميديا) واكتشافه إمكاناتها وبراعته في تنوع مصادره من يونانية قديمة إلى لاتينية إلى إسلامية مشرقية وأندلسية، كما يجب أن ننظر إلى القيمة الكبيرة التي أولاها الغرب لكتاب "النبي للبناني جبران خليل جبران والذي قدم فيه الملاذ والشفاء من أمراض العصر والشعور بالاغتراب الذي ما فتئ عامل هدم للذات الغربية ولذلك أصبح" النبي "من أعظم الكتب تأثيرا وقبولا

بالرغم من تأثره الواضح بكتاب هكذا تكلم زارادشت" للفيلسوف الألماني فريديريك نيتشه في القالب القصصي وفي عدد من الأفكار.

***خامسا:* العمل الأدبي كل لا يتجزأ، ونظام دلالي متماسك:**

النظر إلى العمل الأدبي المتناول في أية دراسة مقارنة على أنه كل لا يتجزأ. ذلك أن الانشغال بالصلة الخارجية للعمل الأدبي ومحاولة تلمس دليل نَصي يؤكدها، والسعي للعثور على دليل فوق نصي أو خارجي يعززه (وذلك بالتفتيش في الوقائع والوثائق والتواريخ والسير الأدبية وغير الأدبية وسجلات التفاعل مع الآخر في التقليد الأدبي القومي، أو التقليد الأدبي الخاص بالآخر، أو التقليد الأدبي الخاص بالوسيط) ينبغي ألا يستهلك جهد الدارس المقارن كله، أو أن يستغرقه استغراقاً تاماً. إذ إن عليه ألا ينسى أن العمل الأدبي قبل كل شيء أثر له كيانه ووحدته واستقلاله النسبي،

وأن دراسته للصلة الأجنبية فيه، ليست إلا إلقاءً لبقعة ضوء ضرورية على علامة أو أكثر من نظام العلامات Signs System الذي يشكله، وأن فهم هذه العلامة أو أكثر مرهون بمعرفة موقعها من هذا النظام الكل، وأن فهم آلية هذا النظام ومكوناته وعناصره الصغرى وآلية إنتاجه للمعنى وللدلالة هو هدفه الاستراتيجي البعيد.

ويمكن هنا الاستفادة من مجال يعد من أحدث المجالات في الدراسات النصية وهو لسانيات النص الكفيل بأن يوضح كيف تآلفت تراكيب وأخيلة وصور وأفكار في نص جامع بالرغم من مصادرة الخارجية المتعددة ويعتبر من المجالات الأكثر رحابة مما يمكن التنبؤ بخصوبة الدراسة فيه.

الهـــوامـــش:

* لكل علم فلسفة أو رؤية ومادة ومنهج، غير أن الأدب المقارن وإن حصّل الشرطين الأولين إلا أنه ما يزال يفتقر إلى منهج، وجدير بالملاحظة هنا أنه لا يمكن مقارنة إشكالية المنهج في هذا المجال المعرفي بإشكالية المناهج النقدية المختصة بدراسة النصوص لأن هذه الأخيرة تتفق عما تبحث عنه في النصوص الأدبية وهو المعنى أو كيفية تكون المعنى رغم اختلاف مقارباتها المنهجية وآلياتها التحليلية، وبالنسبة للأدب المقارن فإن المقارن تراه يدخل المقارنة دون هدف واضح منذ البداية ؛ فهل تراه يقوم بعمله من أجل إثبات حصول عملية التأثير والتأثر أم تراه يريد إثبات دين أدب قومي على أدب قومي آخر ؟ أم المسألة تتعلق باستخراج جماليات النصوص المقارن بينها ؟ مسائل عويصة يظل الباحثون في هذا الحقل يستشعرون عمقها وهذا البحث من شأنه أن يقدم اقتراحا لما يمكن أن تكون عليه المقارنة .

1. فرانسيس كلودين وكارين حداد فولتنغ، الوجيز في الأدب المقارن؛ نظريات ومناهج المقاربة المقارنية، تر: عبد القادر بوزيدة . دار الحكمة 2002، الجزائر، ص67 .

2. محمد مدني، مستقبل الأدب المقارن في ظل العولمة، يكون أولا يكون تلك هي المسألة، مركز دراسات المستقبل جامعة المنيا. كتاب المستقبل مركز دراسات المستقبل، دار الهدى، ص 91 .

* هناك اتجاه في الأدب المقارن يرى أنه لا يجب الاكتفاء بمقارنة أدب بأدب آخر بل بميادين التعبير الإنسانية الأخرى أيضا. فالمقارن خارق حدود يقيم جسورا بين ضفاف كانت تتجاهل بعضها بعضا رغم ما يمكن استخلاصه منها بعد المقارنة ولهذا اقترح أحد المقارنين الأمريكيين معالجة مواضيع من مثل أثر الموسيقى العربية في روايات نجيب محفوظ.

3. إبراهيم عبد الرحمن، *"الأدب المقارن بين النظرية والتطبيق"*، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان. 2000 ، ص .73 74 .

4. عز الدين لمناصرة، *"النقد الثقافي المقارن"*؛ منظور جدلي تفكيكي، دار مجدلاوي، عمان الأردن ، 2005. ص 77

5. فرانسيس كلودين وكارين حداد فولتنغ، *"الوجيز في الأدب المقارن"*؛ ص 15.

6. المرجع نفسه، ص 19.

7. سعيد الوكيل، *"الأدب المقارن د.ط، د.ت. د.د.ن"*، ص 193.

8 . ابراهيم عبد الرحمن، *"الأدب المقارن بين النظرية والتطبيق"*، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، 2000، ص 6.

9. نبيل علي، *"الثقافة العربية وعصر المعلومات"*؛ رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي، عالم المعرفة. الكويت. يناير 2001 ص68.

10. عز الدين المناصرة، *"النقد الثقافي المقارن منظور جدلي تفكيكي"*، دار مجدلاوي، عمان ـ الأردن، ط1 2005، ص 76.

* صاحب هذا المنهج هو الباحث السوري عبد النبي أصطيف الذي أصدر بحثا مطولا بعنوان *"المنهج في الدراسة المقارنة في مجلة الموقف الأدبي"* ـ مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ـ العدد 321 كانون الثاني "رمضان" 1998، ولأهميته الكبيرة قررت تمثله وتطبيقه على عدد من النصوص سبق وان طبقت عليها المقارنة ولكن بشكل آخر وقد رأيت أن من الواجب البحث عن منهج يمكن أن يكون الطريقة المثلى المتبعة في الدراسة إن أمكن لنا تطبيقها وقد قمت بتطبيق هذا المنهج على طلبة السنة الرابعة في جامعة يحي فارس بالمدية وكانت النتائج طيبة.

* القصة على لسان الحيوان مصطلح يستعمل في الأدب العربي القديم وهو طويل ومن شروط المصطلحات الإيجاز، في مقابل الخرافة أو الأمثولة وFable في اللغة الفرنسية.

مـــراجـــع البحـــث :

1- فرانسيس كلودين وكارين حداد فولتنغ، "*الوجيز في الأدب المقارن نظريات ومناهج المقاربة المقارنية*". تر: عبد القادر بوزيدة .دار الحكمة الجزائر. 2002

2- محمد مدني، "*مستقبل الأدب المقارن في ظل العولمة*". يكون أولا يكون تلك هي المسألة مركز دراسات المستقبل. جامعة المنيا كتاب المستقبل 3 مركز دراسات المستقبل .دار الهدى.

3- عز الدين المناصرة، "*النقد الثقافي المقارن منظور جدلي تفكيكي*". دار مجدلاوي. عمان، الأردن 2005.

4- "*مجلة الموقف الأدبي*" ـ مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ـ العدد 321 كانون الثاني" رمضان" 1998

5- نبيل علي "*الثقافة العربية وعصر المعلومات رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي*". عالم المعرفة الكويت يناير 2001

6- سعيد الوكيل، "*الأدب المقارن*" د.د.ن د.ط. د.ت.

7- إبراهيم عبد الرحمن، "*الأدب المقارن بين النظرية والتطبيق*"، الشركة المصرية العالمية للنشر لونكمان.2000.